



مع ابن كثير في تفسيره للتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ ۚ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ۚ ﴾ (١) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ۚ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هاتين الآيتين قوله:

يذكر الله تعالى أنه: يَسُوقُ السَّحَابَ بقدرته أوَّل ما يُنشئها وهي ضعيفة، وهو "الإزجاء" ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ أي: يجمعه بعد تفرقه ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا ﴾ أي: مُتراكِمًا بعضه على بعض ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ ﴾ أي: المطر ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ ۚ ﴾ يُحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ ﴾ أي: بما ينزل من السماء من نوعي المطر والبرد، فيكون قوله: ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ رحمة لهم، ﴿ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ ۚ ﴾ أي: يُؤخِّرُ عنهم الغيث. ويُحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ ﴾ أي: بالبرد نعمة على مَنْ يَشَاءُ؛ لما فيه من نثر ثمارهم، وإتلاف زروعهم وأشجارهم

(١) النور: ٤٣، ٤٤.

﴿ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ رحمةً بهم.

وقوله: ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴾ أي: يكاد ضوء بَرْقِهِ - من شدته - يخطفُ الأبصارَ إذا اتبعته وتراءته.

وقوله تعالى: ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أي: يتصرّف فيهما، فيأخذ من طول هذا في قصر هذا؛ حتى يعتدلاً، ثم يأخذ من هذا في هذا، فيطول الذي كان قصيراً، ويقصر الذي كان طويلاً. والله هو المتصرّف في ذلك بأمره وقهره، وعزته وعلمه ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَرِ ﴾ أي: لدليلاً على عظمته تعالى. كما قال سبحانه: ﴿ إِنِّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطِلاً تُسَبِّحُكَ فَقَدْ خَلَقْنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ ۚ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (١)

ذاك ما ذكره الإمام ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزَيِّجُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ

جَبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيَقِصِبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ
يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿١٦﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٧﴾
﴿ وَمَنْ تَدَبَّرَ التَّنَاسُبَ بَيْنَ مَا جَاءَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ وَمَا جَاءَ قَبْلَهَا، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ أَلَمْ تَرَ
أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَتَفَتِ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ
وَتَسْبِيحَهُ ﴾ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ ﴿١٧﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ
الْمَصِيرُ ﴾ ﴿١٨﴾ ﴾ (١) مَنْ تَدَبَّرَ ذَلِكَ عَرَفَ حِكْمَةَ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ وَاقِعٍ مَنْظُورٍ
مُشَاهِدٍ، تُرَى حَقِيقَتُهُ، وتُعرف آثاره ونتائجه في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا

والفائدة من ذلك: أن يُحقق الإنسان حكمة خلقه وغاية وجوده، ويعمل لما
خُلِقَ من أجله، وهو يرى آياتِ الله المنزلة عليه تتسق مع آياتِ الله في الآفاق وفي
الأنفس في مخاطبته وتذكرته؛ لتظل البصرة قائمة في حياة الإنسان لا تُبارحه ولا
تنفك عنه ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ ﴿١٩﴾ وَهُوَ
الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ ﴿٢٠﴾ (٢)

إن الإنسان قد خُلِقَ لغاية. وأولوا الأبواب - وهم يتفكرون في اختلاف الليل
والنهار، وما خَلَقَ الله من شيء - يعملون لما تُرشدهم إليه آياته، فيذكرون ربهم في

(١) النور: ٤١، ٤٢.

(٢) الفرقان: ٦١، ٦٢.

جميع أمرهم: قياماً، وقعوداً، وعلى جنوبهم، ويقولون - وهم يتفكرون -: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١) فتكون آيات الله في الآفاق وفي الأنفس معينة لهم على اتباع الحق، داعية إليه.

وهكذا كان تدبر رسول الله ﷺ. فقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ، قَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ. اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أُنِيتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ. فَاعْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ. أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ. لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» (٢)

هكذا يكون تدبر القرآن علماً وعملاً، وهكذا كان لرسول الله منهجاً وخلقاً. فطوبى لمن اقتدى به، واتبع النور الذي أنزل معه ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٣)

(١) آل عمران: من الآية ١٩١.

(٢) البخاري: كتاب الجمعة، باب التهجد بالليل، رقم ١٠٥٣.

(٣) الأعراف: ١٥٧.